

مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

البعد التاريخي والنفسي للتربية الأسرية لدوركايم، وأثرهما في تأصيل مفهوم التمثّلات الاجتماعية-دراسة تحليلية نقدية-

The historical and psychological dimension of the family education of Dorkim, and their impact on the establishment of the concept of social -representations-critical analytical study

تونسي السعيد^{1*}، حسان هشام²،

¹ جامعة زيان عاشور بالجلفة (الجزائر)

² جامعة زيان عاشور بالجلفة (الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/04/01

تاريخ ارسال المقال: 2025/03/03

* المؤلف المرسل

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة بحث وفهم حقيقة العلاقة القائمة، بين التربية الأسرية التي تلقاها اميل دوركايم في طفولته، كسبيل لأسرة دينية، وبين المفاهيم التي أصّلها وأسّسها في دراساته السوسيولوجية ومن أهمّها مفهوم التمثّلات الاجتماعية.

ولأنّ الاهتمام لا يزال بالغ مداه حول اسهامات وانجازات اميل دوركايم على مستويات عدّة مثلما هو حال النظرية والمنهج ، وأنّ الخلفية التاريخية والبيئة الأسرية وما يستتبعها من تنشئة وتربية أسرية، يشكل التاريخ والنفس إحدا أبعادها في حياة كلّ عالم اجتماع، كان من الضروري الخوض في غمار البحث في بيئة هذا العالم الاجتماعي والفيلسوف الذي ينعت بالأخلاقي، في محاولة منّا للوقوف على حقيقة هذه الخلفية في تطوّرها التاريخي، وتركيباتها النفسية، التي طبعها تاريخ اليهود ومصادره الدينية وحقيقته الايديولوجية، التي تشكّلت بنيتها المعرفية على التحريف والتزييف والضلال.

كما أنّ مصادفة البدايات الأولى للتّظير والتأليف الذي طبع أعمال دوركايم مع انعقاد المؤتمر الأوّل للحركة الصهيونية، كحركة عنصرية شكّلت في ما يسمّيه البعض بالعلمانية اليهودية في مقابل مقدّساتهم ممثلة في التوراة والتلمود، وبعد مرور قرن ونيف من الزمان على وفاة هذه القامة العلمية في حقل السوسيولوجيا، و على اقتطاع وعد بلفور المشؤوم الذي أفرز بعد ما يقارب الثلاثين عاما قيام الكيان الصهيون مستلبا حقوق شعب وأمة، وجعل من المفاهيم التي ركّز عليها دوركايم والتقسيمات التي أصبغها عليها، متطابقة مع قرارات الحركة ومضمون الوعد تطابقا يكاد يكون مطلقا ، الشيء الذي أثار هاجسا من التسؤلات البحثية، رأينا أن نستنطقها في مجال التربية الأسرية ، عبر أربع عناصر. هي نشأة اميل دوركايم، و مصادر التنشئة الدينية في المجتمع اليهودي، وأثر البعدين التاريخي والنفسي لهذه التنشئة الدينية وعلاقتها بالتأصيل والتأسيس المفاهيمي لاميل دوركايم.

Abstract :

This study aims to try to research and understand the reality of the relationship between the family education that Emile Durkheim received in his childhood, as a descendant of a religious family, and the concepts that he originated and founded in his sociological studies, the most important of which is the concept of social representations.

And because the interest is still very wide about the contributions and achievements of Emile Durkheim on several levels, such as the case of theory and method, and that the historical background and the family environment and the consequent upbringing and family education, history and the soul constitute one of its dimensions in the life of every sociologist, it was necessary to delve into the research in the environment of this social scientist and philosopher who is called moral, in an attempt to find out the truth of this background in its historical development, and its psychological composition, which was imprinted by the history of the Jews and its sources. Religious and its ideological reality, whose epistemological structure was formed on distortion, falsification and delusion.

The coincidence of the first beginnings of theorizing and authorship that marked Durkheim's work with the convening of the first congress of the Zionist movement, as a racist movement formed in what some call Jewish secularism in exchange for their sanctities represented in the Torah and the Talmud, and more than a century after the death of this scholarly figure in the field of sociology, and on the truncation of the ill-fated Balfour Declaration, which produced after nearly thirty years the establishment of the Zionist entity taking away the rights of a people and a nation, and made the concepts that Durkheim focused on and the divisions Which I dye on it, identical to the decisions of the movement and the content of the promise almost absolutely, which raised a concern of research questions, we saw to question them in the field of family education, through four elements. It is the emergence of Emile Durkheim, the sources of religious upbringing in Jewish society, the impact of the historical and psychological dimensions of this religious upbringing and their relationship to the rooting and conceptual foundation of Emile Durkheim.

مقدمة:

يمثل اميل دوركايم (1858 – 1917) Emil Durkheim قامة علمية في تاريخ النظرية السوسيولوجية المعاصرة، من خلال إسهاماته الفكرية التي بلورها على المستويات النظرية والمنهجية، والمستوى التحليلي للمعطيات الواقعية في الحياة الاجتماعية، والتي مازالت تستقطب العديد من المهتمين في مجالات علم الاجتماع المتعدّدة وخاصة في ميادين التربية، وخاصة مفهوم التربية الأسرية حيث يتلقّى الفرد الاجتماعي أولى لبناته في التنشئة الاجتماعية.

ولأنّ الخلفية التاريخية المجتمعية لأي عالم اجتماع تمثّل الدرجة الأولى في سلّم الارتقاء الفكري، فإنّ الإسهامات المفاهيمية التي قدمها إميل دوركايم للنظرية السوسيولوجية، ومنها مفهوم التصورات الجمعية les représentations sociales، أو التمثّلات الاجتماعية les représentations sociales، تستوجب البحث في الظروف التاريخية التي طبعت النفس الدوركايمية على روحية وعقلية علم الاجتماع.

مشكلة البحث:

شكّل مفهوم التمثّلات الاجتماعية في العقود الأخيرة محورا مستقطبا الكثير من الباحثين المنتمين للفروع المختلفة للعلوم الاجتماعية، وإذا كان التصوّر منشأ العقل كما يرى جلّ المفكرين، إلا أنّ المصادر الأخرى في عملية تكوينه على غرار الأسرة الخلية الأولى لمنشأ الفرد تمثّل المحطّة الأبرز في حياة الفرد، ذلك أنّ الأسرة في إطار ما تقدّمه من تربية ترسم بها المعالم التكوينية الفكرية

الظاهرة الاجتماعية (الدين نموذجا)، والمقدّس والعلماني والضمير الجمعي أو الوعي الجمعي أو العقل الجمعي، وصولا إلى أحد المبادئ الأساسية في التصوّر النسقي لدوركايم وهو التمثّلات الجمعية أو التمثّلات الاجتماعية لا يمكن تصوّرها على أنّها نتاجا لمجرد ملاحظة علمية، سواء كانت هذه الملاحظة بالمشاركة أو بدون مشاركة في الإطار السوسيوي-انثروبولوجي، وبالتالي خارجة عن التصورات الفردية لشخص دوركايم، والنابعة من التصوّرات الجمعية، المنبثقة عن الأخلاق المتسامية والمقدّسة، داخل المجتمع التي أقرها دوركايم نفسه.

فإذا كانت هذه المفاهيم كمتغيّرات تشكّل بناءات للظواهر الاجتماعية، وأنّ الظواهر الاجتماعية كما يعتقد دوركايم جمعية قاهرة لذاتية الفرد، فإنّ العلاقة بين هذه المفاهيم وبين النسق التربوي الديني الذي نشأ بين أحشائه، وفي أحضانه دوركايم في البيوت الحاخاماتية، والتي تعتمد في مصادرها التربوية التاريخية على العهد القديم والتلمود المقدّس قبل سنة 1897، وعلى بروتوكولات حكماء صهيون بعد 1897، تقتضي منا مقاربتها في إطار مشكلة البحث، وفق رؤية سوسيوي-تربوية في بعديها النفسي والتاريخي عبر طرح السؤال الرئيسي التالي:

كيف ساهمت التربية الأسرية من خلال بعديها التاريخي والنفسي في تشكيل معالم المعرفة السوسيولوجية التي انبثقت منها المفاهيم السوسيولوجية لاميل دوركايم؟ .

وللإجابة على هذا السؤال رأينا أن نفكّكه إلى الأسئلة الجزئية التالية:

- 1- كيف نشأ وترتّب دوركايم؟ .
- 2- ما مصادر التنشئة الدينية في المجتمع اليهودي؟ .

3- كيف ساهم القهر الإلهي والنظام العبودي لليهود، كبعد تاريخي في تأسيس المفاهيم السوسيولوجية لدى اميل دوركايم؟.

4- كيف تبلور القهر الإلهي والنظام العبودي لليهود كبعد نفسي في تأصيل هذه المفاهيم عند اميل دوركايم؟.

أولاً: إميل دوركايم. كيف نشأ؟ ومن يكون؟

نشأ اميل دوركايم (1858- 1917) " لأبوين حاخامين يهودين، وقد انتمى من حيث المولد لمنطقة الالزاس، ومن الناحية الأكاديمية والتعليمية فقد شقّ إميل دوركايم طريقه الفكري خارج النظام الأكاديمي منذ البداية"¹، والهاجس البحثي منذ البداية، أيّ طريق فكري خارج النظام الأكاديمي يستقي منه طالب العلم علمه، إذا لم يكن الطريق الديني أو طريق التنشئة الدينية؟ إذ أننا نتحدث عن فترة تاريخية تفوق القرن والنصف من الزمان، تتحدّد بتاريخ مولد عالم السوسيولوجيا دور كايم من 1858 إلى نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر. من هنا نعود للتأكيد أنّ والده المدعو موس كان " حاخاما للطائفة اليهودية في إينال منذ العام 1830، وكان هو أيضاً الحاخام الكبير لكلّ من منطقة فوسي وأوت مارين. كذلك كانت الحال بالنسبة إلى جدّه الأصغر والأكبر من جهة أبيه، حيث كان كلّ منهما حاخاما للطائفة اليهودية، وعليه فقد أمضى دوركايم سنوات تعليمه الأولى في مدرسة دينية يهودية"². وبغضّ النظر عن ما قيل عن تخلي دوركايم عن التعليم الديني وعن كرسي الحاخاماتية الذي كان يحضّر له، إلا أنّ الاستعانة بعلم النفس التحليلي الذي يقرّ أنّ مرحلة الطفولة هي التي تطبع شخصية الفرد في باقي حياته، خاصة إذا كانت بداية الحياة صاحبها مشكلات تتعلّق بالطائفة أو الجماعة اليهودية في عموم أوروبا وفرنسا خاصة. يرى نيقولا تيماشيف أنّه "من المحتمل أنّ مولده في القسم القومي من فرنسا، واتصالاته الأولى التي صاحبت الحرب بين فرنسا وبروسيا، وتوحّده مع الأقلية اليهودية المتماسكة، من المحتمل أن يكون ذلك هو الذي أسهم في تشكيل اهتمامه بدراسة تضامن الجماعة"³، وإن كان سفره إلى ألمانيا شكّل عاملاً حاسماً في تدرّجه الأكاديمي، "حيث درس الاقتصاد، والفلكلور، والأنثروبولوجيا الثقافية، ثمّ عين استاذاً بجامعة بوردو bordeaux عام 1887، والتحق بجامعة باريس عام 1902. وقد أسّس الحولية الاجتماعية Année Sociologique عام 1896، والتي ظلّت لسنوات عديدة الدورية الأساسية للفكر السوسيولوجي والبحث في فرنسا. ولقد أقرّ دوركايم تلمذته على كونت، وأخذ عنه تأكيد الوضعي للاتجاه الإمبريقي، وأهمية الجماعة في تحديد السلوك الإنساني"⁴.

بهذا المعنى يكون اميل دوركايم فرنسيّ المولد، يهوديّ الديانة والإثنية، الأمر الذي يجعل من تحليل الإنتماء الديني والعرقى لهذه الشخصية الفكرية، عبر الكيفية التي نشأ بها، يتعلّق بنوعية البيت الذي تربى في كنفه، وعاش بين أحضانه، وطبيعة الفكر الذي تغدّى وشرب منه.

فانتماء **اميل دوركايم** لفئة الحاخاماتية، أي فئة رجال الدين في المجتمع اليهودي، كسليل ونجل لها، واحتمالية مساهمة توحد هذه الجماعة وتماسكهم أينما وجدوا أو حلّوا، كأقلية عرقية ودينية وتجارية وحتى لغوية، في تشكيل اهتمامات **دوركايم** بدراسة **تضامن الجماعة**، يطرح تساؤلاً مفاده إذا كانت هذه الاحتمالية قائمة بتأكيد أحد قامات التأليف النظري السوسيولوجي المعاصر، ونعني به نيقولا تيماشيف، فلماذا لا تقوم نفس الاحتمالية على باقي المفاهيم السوسيولوجية التي شكّلت التصوّر النسقي لدوركايم؟. خاصة بما تعلّق **بقهرية والزامية** الظاهرة الاجتماعية، والضمير الجمعي والتمثلات الاجتماعية، وعلاقتها بظاهرة الدين تحديداً، باعتبار **دوركايم** نشأ وترعرع في بيت ديني حاخاماتي، تورّاتي الكتاب وتلمودي العقيدة في جانبه المقدّس، وفي جانبه العلماني ذو فكر صهيوني. حيث "نشأت الصهيونية لتعالج المشكلة اليهودية في أوروبا، وتعبّر عن التقاء مصالح الصهيونية مع الامبريالية العالمية"¹.

إنّ المشكلة اليهودية كانت ضمن نطاق المشكلات الشخصية **لدوركايم** كما سنر في العنصر القادم، ولكي نفهم هذا التقسيم بين شطري الدين عند اليهود، وهو المقدّس والعلماني، الذي أقره **دوركايم** في دراسته للدين، فإنّه حين الحنا إليه في العنصر الأول، فإنّ الأمر يهدف إلى تحديد المدخل لباقي العناصر القادمة، والمتعلّقة في مجملها بنوع من التداخل في الحديث عن المفاهيم السوسيولوجية التي أصّلها **اميل دوركايم** في نظريته السوسيولوجية الكلاسيكية، لأنّنا نتصوّر أن الترابط والتناسق في الأفكار بين عنصر وآخر يعقبه سيوضّح الصورة أكثر. إنّ هذه اللمحة الموجزة عن مولد ونشأة **دوركايم**، تجعلنا نصبوا إلى معرفة مصادر الدين والعقيدة لدى هذا المجتمع، فماهي مصادر التنشئة الدينية في المجتمع اليهودي؟.

ثانياً: مصادر التنشئة الدينية في المجتمع اليهودي

إنّ الحديث عن مولد ونشأة **اميل دوركايم** واحتمالية تأثره بمشكلاته الشخصية، وهي مشكلة كلّ فرد يهودي في المجتمع الغربي تحديداً، خاصة إذا كان بالمستوى الفكري الذي وصل إليه **دوركايم**، يقودنا بطريقة آلية إلى عملية التنشئة الدينية في المجتمع اليهودي والمصادر التي تتخذها الديانة اليهودية كمرجعية عقائدية، والتي تظلّ بمشاربها كافة المناحي الأخرى للحياة الدنيوية في المجتمع اليهودي، فبالرغم من أنّ هناك اختلاف بين الدارسين للفكر التربوي اليهودي فيما يتعلّق بمصادر النصوص الدينية، بين الذي يرى أنّه ينقسم إلى مصدرين هما العهد القديم (التوراة) والتلمود مثلما يؤكّد الباحث محمد فوزي عبد المقصود، وبين من يرى أنّ مصادر الفكر اليهودي تتضمّن إلى جانب التوراة والتلمود مصدر ثالث، هو بروتوكولات حكماء صهيون، مثلما يؤكّد الباحث والأكاديمي أحمد شلبي في كتابه مقارنة الأديان، فإنّ الرأي الأخير هو الذي نجده أكثر صوابية، وبالتالي نغلبه على التقسيم الأول، على اعتبار أنّ التلمود ذاته هو عبارة عن تشريعات وضعية، نسبت إلى سيّدنا موسى عليه السلام على أنّها تعاليم شفوية، أي بمثابة سنّة موسوية صيغت من قبل حاخامات بطريق محكمة أصبغت عليها طابع القدسية، وهو ما يحيلنا إلى اعتبار أنّ البروتوكولات وضعت بنفس الطريقة وبنفس المنهجية، من قبل مفكرّي اليهود أثناء التأسيس الأول للحركة الصهيونية، كمرفد عنصري في نهاية القرن التاسع عشر، وبالضبط في سنة 1897، وهو العام الذي ألف فيه دوركايم

دراسته عن الانتحار، الذي عرض فيه نظريته حول القهر الاجتماعي وعلاقته بالتضامن الاجتماعي، فهل يعدّ ذلك محض صدفة!.

بمعنى أنّ مؤتمر الصهيونية بمدينة بال السويسرية هو تجمع عالمي لمفكرّي اليهود في عملية تضامن غير مسبقة تاريخياً، حتمتها الظروف القاهرة التي يعيشها المجتمع اليهودي، فدوركايم مثلما تعتقد مادلين غرايتر "هو قبل كلّ شيء فيلسوف وأخلاقي متأثر بمشكلات عصره ومشكلاته الشخصية: قضية درايفوس dreyfus، وهزيمة 1870¹. هذه المشكلات الشخصية التي عنتها مادلين غرايتر تنطبق على كلّ فرد من أفراد المجتمع اليهودي، وهو ما ألمح إليه الباحث نهاد الغادري في كتابه الموسوم بـ التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية، حيث يقول "فمن الواضح أنّ اليهودية تعاني أصلاً من عقدة الاضطهاد، وتحمل أحقاداً لا حدّ لها ضدّ كل المجتمعات الأخرى، وبخاصة المجتمعات المسيحية والإسلامية، حيث هزمت اليهودية معهما في جميع معاركها التاريخية، ولقد ساعد هذا الفكر اليهودي، وغط المعيشة الخاص باليهود كطائفة في كلّ بلد حلّت به، على نشوء هذه العقيدة ونموّها، وإيجاد ظروفها ومبرراتها"².

فالتعاليم التي يحملها التلمود، والتي لسنا بصدد عرضها في هذا المقام، كلّها تزييف وتحريف وضلال "فضلالات التلمود وجدت طريقها ممهداً إلى نفوس اليهود فتمكّنت منها، وذلك : لأنّها وضعت في عصور الشتات، والقوم سمعون للكذب، وخاصة إذا صدر من أحبارهم وعلى هذه التعاليم يشبّ الصغير، ويشيب الكبير، وتتأصل العادات، وتنتقل الصفات والأخلاق الدينية جيلاً بعد جيل، وتتشابه بها قلوب اليهود في كلّ مكان وزمان، لأنّها تستقي من مصدر واحد"³.

ولأنّ الصفات والأخلاق الدينية يقدّسها دوركايم ويجعلها كظاهرة ملزمة وقاهرة، والمنبثقة من تعاليم أحبار يهود، فإنّ حقيقتها كما تعبّر الخلفية التاريخية، لا تخرج عن الإطار الذي رسمته الحتمية الإلهية، والهديّ النبوي لمن ألقى السمع وهو شهيد، بقول الله "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريمّ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عمّا يشركون"⁴. ويقول نبيّه (ص) "أما إنّهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلّوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه"⁵. هذا هو منشأ التربية عند عامة اليهود، فكيف بخاصتهم وأبناءهم أصفياؤهم؟.

إنّ خروج اليهود من الأحياء المغلقة التي كانوا يقيمونها كشكل إنزوائي بعيداً عن الاختلاط مع المجمعات الأخرى، إلا فيما يخصّ الجانب المعاشي والوضعية الاقتصادية، نظراً لحاجتهم في قضاء مآربهم التجارية، باعتبارهم أهل بيع وشراء، والتواصل في هكذا أمر ضروريّ، برغم ذلك كلّ بقية التعاليم الدينية المتناقلة عبر الأجيال في طوائف وأسابط المجتمع اليهودي، والتي يحملها ويحويها التلمود، هي الأساس في التربية والتنشئة الدينية، من هذا المنظور يقرّ ويعترف

(برنار لوزار) "بأنّ التلمود يعدّ بمثابة المعلم الأكبر لليهود، إنّ له دوره في تكوين اليهود، وتحويل الأفراد المنحدرين من أصول متفرقة لشعب واحد، فالتلمود هو ذلك القلب الذي صنع النفوس اليهودية وصاغ خصائصها"¹.
 أمّا بروتوكولات حكماء صهيون والتي تعتبر محاضر جلسات، فإنّ الباحث محمد شلي يعتقد كما يرى عديد الباحثين بأنّ "هذه البروتوكولات كانت القرارات السرية لمؤتمر بال"². فالظواهر على ما يبدو كما يتصوّر البعض تدلّ "على وجود علاقة زمنية بين هذه البروتوكولات وبين نهاية القرن التاسع عشر، وعلى وجود ارتباط بين هذه البروتوكولات وبين مؤتمر بال الذي عقد سنة 1897، ومرجع هذا الفهم أنّ هذه البروتوكولات عبارة عن مؤامرة شريرة ضدّ البشرية، ويبدو أنّها كانت ردّة فعل لما عاناه اليهود خلال القرن التاسع عشر من اضطهاد في أوروبا... فتدارسوا في هذا المؤتمر... وسائل الانتقام من البشرية جميعا التي اعتقد اليهود أنّها اشتركت كلّها بطريق أو بآخر في إذلالهم والنيل منهم"³.

وبالعودة إلى مضامين التلمود وأثره في صياغة الشخصية اليهودية، فمعناه أنّ دوركايم شبّ على تعاليم التلمود، وشاب على بروتوكولات حكماء الصهيونية، لنخلص أنّ احتمالية هذا الأمر يعود على كلّ مفكّر وفلاسفة وساسة اليهود، وكلّ هذا مردّه سياسة القهر التي عايشتها كلّ الأجيال اليهودية عبر تاريخهم، بداية من القهر الإلهي، وسياسة النظام العبودي منذ الأسر البابلي الأول، والذي طبع في أعماق النفس الفردية اليهودية، وبالتالي ميّزت ذوات المجتمع اليهودي برمّته، وشكّلت فيما بعد تصوّرا جمعيّا، إنّ على مستوى البعد التاريخي أو على مستوى البعد النفسي، سماه اميل دوركايم بالضمير الجمعي.

فما حقيقة القهر الإلهي والنظام العبودي كبعدين تاريخي ونفسي؟ وما أثرهما في التأسيس المفاهيمي السوسيولوجي لدى اميل دوركايم؟.

ثالثا: القهر الإلهي والنظام العبودي لليهود كبعد تاريخي وأثره في تأصيل المفاهيم السوسيولوجية لدى دوركايم
 يرى محمد أبو القاسم حاج حمد في كتابه الموسوم بـ "جدلية الغيب والإنسان والطبيعة - أنّ الله قد تولى "أمر المواجهة الكلّية للحضارة الفرعونية، فشعب إسرائيل كان مستسلما خنوعا، بل كانت تشقّ عليه جرأة موسى وتصّديه لفرعون بعد عودته من غيابه الطويل في أرض مدين"⁴ وهو التحليل الذي ساغته آيات سورة الأعراف "قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون"⁵.

ليضيف الباحث المفكّر حاج حمد "وجاءت آيات القهر تترى على رؤوس بني إسرائيل، بنفس مستوى ونوعية التسخير لهم في الطبيعة، ومتساوية مع ردود أفعالهم"⁶، وهو الأمر الذي حدّدته الآيات من 51 إلى 61 من سورة البقرة، ونوعية تسخير الظواهر الطبيعية لبني إسرائيل على غير سنن الحياة، كشقّ البحر وتدفق الماء من الصخر

والإحياء بعد الصعق وعملية المسخ إلى قردة، هي كلّها أفعال **خارقة وقاهرة** تعبّر عن التوافق بين الفعل، وردة الفعل من نفس الطبيعة إذا حدث نكران أو جحود لفضل هذا الفعل. بمعنى أنّ العطاء الإلهي الخارق لبني إسرائيل يستوجب عذاب خارق في حالة الجحود به، وهي طبيعة نفسية جبل عليها الإسرائيليون. ومنه فإنّ تكرار الحدث الطبيعي الخارق في قهرته يصبح ظاهرة طبيعية، وعندما تحدث هذه الظاهرة الطبيعية في المجتمع نفسه، فمعنى هذا أنّ الجحود والنكران في هذا المجتمع قد تكرّر، بما يحيلنا إلى اعتبار تكرّر الحدث (الجحود والنكران) سيؤدّي لا محالة إلى أن يصبح ظاهرة اجتماعية قاهرة، تغلغت في نفسية أفراد هذا المجتمع، ويصبح بالتالي تطبيع أفرادهم وتنشئتهم الدينية وفق مصادرها المذكورة سابقا، على مثل هكذا فعل أمر **ملزم وحتمي**، حتمي في صيرورته، أي مآله ومنتهاه، ومتناقل في سيرورته التاريخية، التي يعمل عليها أحبار اليهود (الحاخامات).

لقد تربّى **إميل دوركايم** في هذه البيئة الاجتماعية، ونشأ على مثل هذه البرامج التربوية الدينية، وهي برامج طبعها هذه العقليات وجعلتها أخلاقا وموروثا وتاريخا، لا يزال ماثلا أمام العالم، رسخت وترسّخ مخرجاته ونتائجه ما يسميه **إميل دوركايم** بالضمير الجمعي.

هذا على المستوى المعرفي الفلسفي للقراءة التحليلية لأيات القرآن الكريم في إطار فلسفة الدين، أمّا الخلفية التاريخية فالمجتمع اليهودي عبر تشكيله لمملكات خارج الإطار المكاني لتجمّعاتهم الأصلية، تعرّض كما ذكر الباحث أحمد شلبي أستاذ التاريخ الإسلامي عبر " سقوط دولتي اليهود وما تبع ذلك من نفي وأسر.... ويعرف هذا بالأسر البابلي وهذا هو التدمير الأول للمدينة والمعبد"¹ وقد تمّ ذلك في سنة 586 ق م. أمّا التدمير الثاني فقد كان في سنة 70م "حيث دمر الإمبراطور تيطس الروماني مدينة **أورشليم** وأحرق الهيكل على إثر ثورة قام بها اليهود، وهذا هو التدمير الثاني للمدينة والمعبد بعد التدمير الأول الذي قام به **بختنصر**"²، بالإضافة إلى ما تعرّض له اليهود من قهر واضطهاد، كان ردّة فعل على فسادهم الذي أقرته آيات سورة الإسراء " وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرتين ولتعلونّ علوا كبيرا"³، وهو فساد في الأرض قاطبة، وليس في منطقة بعينها كالمشرق العربي، ممّا يعني أنّ الفساد كظاهرة اجتماعية وفي علاقته باليهود تحديدا هو حتمية إلهية وتاريخية. من هنا نخلص إلى أنّ **القهر الإلهي والاستعباد الإنساني لليهود عبر تاريخهم الاجتماعي**، كان نتيجة منطقية للعلوّ

والاستكبار في الأرض، الناجم عن الجحود والنكران جحود العطاء الخارق والتفضيل الإلهي لليهودي على العالمين، أي باقي المجتمعات والتجمّعات الإنسانية، ونكران فضل الشعوب الأخرى المستوعبة لهذه الضمائر والنفوس من البشر، والتي جبلت على منطق الفساد كمؤشّر للشروع، سطرته العقليات الحاخاماتية في شكل وصايا إلهية عبر عمليات التحريف والتزييف، متجاوزة ملمح الموضوعية التي يتغنى بها العلماء السوسيولوجيون وعلى رأسهم **إميل دوركايم**، لتقفز بذلك النصوص التلمودية الوضعية متضمّنة الطقوس والمعتقدات كمدنّس إلى أشياء مقدّسة، ولأنّ دائرة " الأشياء المقدّسة لا يمكن أن تتحدّد مرة واحدة، لأنّها تختلف في مداها اختلافا يتوافق مع تنوّع البيانات

ويكتسب المقدّس أهميته من خلال تميّزه عما هو علماني¹. ولأنّ العلماني بهذا المعنى وهذا الفهم هو ما جادت به قرائح الساسة والمفكرين من مؤسّسي الحركة الصهيونية اليهودية، وقبلهم عقول الحاخامات، فإنّ التمييز الذي قدّمه دوركايم بين المصطلحين المقدّس والعلماني، عاصر نفس الفترة الزمنية للحركة الصهيونية، بما يحيلنا إلى الأخذ بعين الاعتبار أنّ هذه المعاصرة الزمنية التي اشتغلت فيها آليات الفكر السياسي والفكر السوسيولوجي الأنثروبولوجي لخدمة المشروع نفسه، لا يعقل أن يسخر اليهود فيها كلّ طاقاتهم وجهدهم ووقتهم لبداية تنفيذ مشروعهم القومي المرشح في ذواتهم عبر التاريخ، دون أن يكون لاميل دوركايم نصيباً في ذلك.

رابعاً: البعد النفسي في التنشئة الدينية اليهودية وأثره في التأصيل المفاهيمي لدوركايم

إنّ السؤال المطروح سابقاً يحيلنا إلى الاعتقاد والتصور أنّ دوركايم من خلال ملاحظته بالمشاركة أو بدون مشاركة، للأشكال الأولية للدين عبر قبيلة الاروننا الأسترالية البدائية، انتقل من النظري في كتب أحبار اليهود الدينية التوراة والتلمود (مقدّس)، والتي شوّهت وحرفت عبر تاريخ 14 قرناً قبل الميلاد من رسالة موسى، وقك الارتباط بالتالي مع عصر العبودية الفرعونية لبني إسرائيل، إلى الإمبريقي في واقع القبائل البدائية الأسترالية، ليستعيد اميل دوركايم على المستوى النفسي، الصورة المثالية للحياة الدينية اليهودية بداية من عبادة العجل، أي عبادة مظاهر الطبيعة المقدّسة (الحياة الطوطمية)، ففي "كتابه الأشكال الأولى للحياة الدينية، نراه يوسّع النقاش حول التصنيف البدائي ليشمل الأديان. فهو يرى أنّ الدين يتركز على التقسيم الرئيسي للعالم إلى مقدّس ودنيوي.... ثمّ يتقدّم في النقاش ليؤكد أنّ النظام الطوطمي يرتبط بقدسية المجتمع"². من هنا خرج اميل دوركايم بتصوراته لمفاهيم الوعي الجمعي من خلال المقدّس والدنيوي (العلماني) الذي صاغته وجادت به القرارات الصهيونية كوصايا علمانية (مدّس)، بما يحيلنا إلى أنّ الدعوة إلى تحلّي الباحث في حقل علم الاجتماع عن ذاتيته في بعدها الديني هو مجرد هرطقة وزندقة، المراد منها تزييف وعي الباحث الاجتماعي، في مجتمعات دونية (حيوانات سخرت لخدمة شعب الله المختار-حسب الإيمان والاعتقاد اليهودي-)، ومن هذه المجتمعات المجتمع العربي.

هذه الدونية التي توصف بها المجتمعات الغريبة (غير اليهودية)، والتي سخرت لها جميع الوسائل خاصة الإعلامية والمادية منها، وعلى المستوى العالمي، وبدل التأثير في الفكر العربي المعاصر بصورة إيجابية كما يوحي عنوان الملتقى، نتصور أنّها ساهمت بشكل كبير في ترسيخ الأزمة الفكرية في الواقع العربي المعاصر، فالنظام الفكري اليهودي الذي ذكرنا أنّ أقوى مشاريه تتمثّل في التلمود وبروتوكولات حكماء صهيون، وأنّ هذه الأخيرة ولدت في أدق مرحلة عاشها دوركايم وهي مرحلة التأليف والتنظير، وما صاحب ذلك من التأصيل والتأسيس للمفاهيم السوسيولوجية التي جاء بها دوركايم، قائمة "على موازنة الشريعة القهرية - الحواس - خلافاً للإسلام القائم على الشريعة المخففة - النفس الإنسانية-، فالنظام اليهودي يبدأ بالنار الملتهبة في طور سيناء، وهذه رمزية حسية واضحة حيث تقوم الشجرة المباركة مقام الحواس (النبات).... فالإيمان اليهودي يرتبط بإجراء الله للخرقة الطبيعية التي تتجاوز سنة الطبيعة، يفرّق البحر بين طودين طريقاً يبسا ليعبر الإسرائيليون من مصر إلى الأرض المقدّسة وينبجس الماء من

الصخر..."¹. بهذا المعنى فإنّ البعد النفسي في التنشئة الدينية اليهودية، راسخ رسوخ التاريخ اليهودي نفسه، سواء على مستوى الوعيّ اليهودي، أو الوعيّ العربي ووعيّ الشعوب العالمية الأخرى، وبالتالي لا يمكن تصوّر أنّ اميل دوركايم الذي نشأ في بيت ديني حاخاماتي تلمودي، قد تربّى على غير نظام التشريع الديني التربوي اليهودي، أي نظام الشريعة القهري القائم على ما هو حسّي. ومنه نخلص إلى أنّ البعد النفسي في طبيعة التربية الدينية اليهودية، والتي نشأ وتربّى في احضانها اميل دوركايم، كان لها تأثيراً كبيراً في تأصيل وتأسيس المفاهيم الدوركايمية نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، خاصة في يتعلّق بالدين والأخلاق، كظواهر مجتمعية خارجة عن وعي وشعور الأفراد، وبالتالي قهرتها لذوات (نفسية) الأفراد، بما يجعلها تندرج ضمن نطاق التمثلات الاجتماعية التي نادى بها دوركايم.

فدراسة دوركايم للنشاطات الاجتماعية (لارونتا) حيث لاحظ " أنّ حياتهم تنقسم إلى قسمة عادلة بين جانبيين: الأوّل علماني Secular يتصل بانقسام العشيرة إلى مجموعات صغيرة من الأفراد يمارسون حياتهم الخاصة سعياً وراء قضاء مطالبهم وحاجاتهم. أمّا الجانب الثاني فيتمثّل في التجمّعات الدورية المقدّسة للعشيرة التي تعمل على تنظيمها وتحقيق سيادة الجماعة"²، هذه الدقّة المتناهية في عملية التفكيك لظاهرة الدين إلى المستويين المذكورين المقدّس والعلماني، تتشابه بصورة تكاد تكون متطابقة إلى الحدّ الذي يجعلهما وجهين لعملة واحدة مع محاولة عملية التطبيع أو التطويع بغية اقتلاع " جذور العداء الكامنة في الدين والآيات الخفية لبني إسرائيل، وفي القومية وفي التاريخ وفي الثقافة صعوداً إلى التدامج الاقتصادي ومراكز العولمة بليبراليتها وبرغاميتها، وبما يؤدّي لتفكيك الشخصية الإسرائيلية ودفاعاتها الذاتية على المستويين التلمودي اللاهوتي [مقدّس] والصهيوني العلماني"³.

إنّنا هنا أمام حالة تكاد تكون خاصة في توجّهاًها واتجاهاًها، فالتنظيرات التي قدّمها دوركايم تتمّ عن نفسية شربت العقائد من المنابع الأصلية للتحريف والتضليل، ومن الصعب التخلّي عن ذلك لمجرد ملاحظة علمية لظاهرة ما، أو دراستها عبر قواعد منهجية تكاد تكون مضبوطة، فالأمر هنا يتعلّق بعملية تهويد لما هو فطري، والفطري هنا هو ما ينسجم مع المبادئ الكونية، "يولد الإنسان على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه" (الحديث). "فبقدر ما يكون الإنسجام النفسي مع المبادئ الكونية وضوابطها الغائية، المستمدّة منها هي نفسها، بقدر ما يكون الأمن النفسي، والتواصل الحضاري الإيجابي. وبقدر ما يكون التضاد النفسي مع صياغة هذه المبادئ الكونية يكون الانقسام وتنشأ العقد النفسية والأشكال الفردانية من السلوك المدمّر في وسط الجماعات البدائية أو المتخلّفة أو المتحضّرة"⁴.

على هذا يكون اميل دوركايم حسب تصوّرنا وتحليلنا في هذه الدراسة، قد أصّل وأسس المفاهيم السوسولوجية رغبة في فكر الارهاصات الأولية للسياسة الصهيونية المضمرة في نفوس المجتمع اليهودي، انطلاقاً من الفئة الحاخاماتية من جهة، ورغبة في نوازع النفسية التي أفرزتها مشكلاته الشخصية التي أقرّها مادلين غراويتز من جهة أخرى، وكلّ ذلك عبر التنشئة والتربية الدينية.

شكل كتابة المراجع:

- علي ليلة، اميل دوركايم وتأسيس التصور النسقي للمجتمع، المكتبة المصرية، بدون طبعة، الإسكندرية، 2004، ص 14.
- 2عبدالله عبد الرحمن تيم، اميل دوركايم ملمح من حياته وفكره الانثروبولوجي، مجلة إضافات، العدد 25، 2014، ص 30.
- 3نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها، ت: محمود عودة ومن معه، دار المعارف، الطبعة الثامنة، القاهرة، ص 168.
- 4المرجع السابق، ص 168.
- 5نعمان عاطف عمرو، العنف في الفكر الصهيوني قبل إقامة دولة إسرائيل عام 1948، جامعة القدس المفتوحة، منطقة الخليل التعليمية، 2008، ص 4.
- 6مادلين غراويتز، مناهج العلوم الاجتماعية- الكتاب الأول العلم والعلوم الاجتماعية-، ت: سام عمار، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف، دمشق، 1993، ص 128.
- 7نهاد الغادري، التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية، دار الكتاب العربي، بدون طبعة، بيروت، 1969، ص 15.
- 8عودة عبد عودة عبد الله، التلمود وأثره في صياغة الشخصية اليهودية، كلية الشريعة، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين.
- 9سورة التوبة الآية 31.
- 10أحمد سالم راتب، الآثار الواردة عن السلف في حقيقة اليهود وأصول الإيمان عندهم في تفسير السيوطي، رسالة ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة، الجامعة الإسلامية، عمادة الدراسات العليا، كلية الأصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، غزّة، 2012، ص 166.
- 11محمد فوزي عبد المقصود، اتجاهات الفكر التربوي المعاصر في إسرائيل، www.kotobbarabia.com ص 45.
- 12أحمد شلي، مقارنة الأديان اليهودية، مكتبة النهضة، الطبعة الثانية، القاهرة، 1988، ص 271.
- 13المرجع السابق، ص 271.
- 14محمد أبو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، الطبعة 01، دار الهادي، بيروت، 2004، ص 289.
- 15سورة الأعراف الآيات 128- 129.
- 16محمد أبو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، المرجع السابق، ص 290.
- 17أحمد شلي، مرجع سابق، ص 84.
- 18المرجع نفسه، ص 88.
- 19سورة الاسراء، الآية 4.
- 20نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص 178.
- 21هارلبس وهولبورن، سوشيوولوجيا الثقافة والهوية، ت: حاتم حميد محسن، دار كيوان، الطبعة الأولى، سورية، 2010، ص 19.
- 22محمد أبو القاسم حاج حمد، الأزمة الفكرية في الواقع العربي الراهن، دار الهادي، الطبعة الأولى، بيروت، 2004، ص 249.
- 23نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص 178.
- 24محمد ابو القاسم حاج حمد، ابستمولوجية المعرفة الكونية -إسلامية المعرفة والمنهج-، دار الهادي، الطبعة الأولى، بيروت، 2004، ص 416.
- 25محمد ابو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية - أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية -، دار الهادي، الطبعة الأولى، بيروت، 2003، ص 164.